

الحلقة التاسعة عشرة

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

وفي اللقاء الماضي تابع سليمان الحكيم ملاحظاته العامة حول الحياة، فوجّه نقده إلى المجتمع، حيث يعم الفساد ويستشري الظلم ويختفي العدل. لكنه دعانا لكي لا نرتاع إذا رأينا هذه المظالم، لأن فوق العالي عالياً، والأعلى أي الله القدير فوقهما. وعرفنا أن الكتاب المقدس يحثنا على إجراء الحق والعدل.

هل تحب المال مستمعي؟ قد تجيب ومن منا لا يحب المال؟ نحن هنا لا نقصد السعي الطبيعي لتحصيل المال لكي يؤمن الإنسان المعيشة له ولأفراد عائلته. لكننا نقصد الركض بجشع وراء تحصيل المال. وكأن المال هو مصدر السعادة في الحياة. كتب سليمان الحكيم قائلاً: « من يحب الفضة لا يشبع منها، والمولع بالغنى لا يشبع من ربح. وهذا أيضاً باطل» (الجامعة ١٠:٥ ترجمة تفسيرية).

إن محبة الفضة لا تقف عند حد. فالذي يكسب منها الكثير، لن يأتي يوم يشعر فيه بالاكتماء والشبع. وكذلك الذي يسعى نحو الغنى لن يكتفي بأرباحه. إن جمع المال هو كالسراب الخادع في الصحراء القاحلة، كلما سعى نحوه الإنسان، كلما طلب المزيد والمزيد دون أن يصل إلى الإكتفاء أو الارتواء. هل تعلم مستمعي أن الذي يسعى نحو الغنى بجشع، سيعيش حياته بخوف وقلق، لابل قد يعاني من الأرق؟

كتب الحكيم قائلاً: « إن كثرت الخيرات كثر أكلوها أيضاً. وأي جدوى لمالكها إلا أن تكتحل عيناه برويتها. نوم العامل هنيءٌ سواء أكثر من الطعام أم أقل، أما الغني فوفرة غناه تجعله قلقاً أرقاً!» (الجامعة ١١:٥ و١٢ تفسيرية). مستمعي الكريم، لقد أراد الحكيم القول: عندما تزداد ثروة الإنسان، لاسيما إذا كانت بغير حق، يكثر حوله الناس المتملقون، الذين يريدون أن يستفيدوا من ثروته ويأكلوها، وهكذا لا يمتع نفسه بها. وهذا الأمر سيزيد بالطبع من خوفه وقلقه على الثروة التي جناها بغير حق.

ثم أعطى الحكيم مثلاً آخر عن وضع هذا الغني الجشع. فتحدث كيف ينام العامل الفقير بهناء، سواء أكل كثيراً أم قليلاً، بينما ثروة الغني لا تجعله يعرف النوم الهنيء الصحيح، بل يكون نومه مليئاً بالأرق والقلق. فماذا استفاد الغني من كل هذه الثروة يا ترى؟

إن كل هذه الأسباب التي ذكرناها تؤكد أن الغني الجشع، لن يعرف السعادة والراحة، على عكس ما يظن الكثيرون. فكثرة المال لا تجلب السعادة للإنسان، بل على العكس تؤدي به إلى الشعور بالفراغ واليأس والخوف والقلق، وحتى الأرق أثناء النوم. فهل هذا ما تتمناه لنفسك يا صديقي؟

لم يتوقف الحكيم عند هذا الحد بل أضاف قائلاً: « قد رأيت شراً مقيماً تحت الشمس: ثروة مدخرة لغير صاحبها. أو ثروة تَلَفَتْ في مشروع خاسر، ولم يُبق (صاحبها) لابنه الذي انجبه شيئاً. عريانا يخرج المرء من رحم أمه، وعريانا يفارق الدنيا كما جاء. لا يأخذ شيئاً من تعبته يحمله معه في يده». وتابع الحكيم قائلاً: « وهذا أيضاً شر أليم، إذ أنه يفارق الدنيا كما جاء فأية منفعة له، إذ أن تعبته يذهب أدراج الرياح؟ ويُنفق أيضاً كل حياته في الظلمات يُقاسي من الأذى والغم والمرض والسُخْط» (الجامعة ٥: ١٣-١٧ تفسيرية). أليست هذه صورة حقيقية لحياة الغني الجشع ونهايتها؟

إن الغني الجشع علاوة على أنه قد يخسر كل ثروته، ولا يستطيع أن يورث ابنه شيئاً، فهو يفارق الدنيا عرياناً، كما خرج من رحم بطن أمه، وتذهب كل أتعابه أدراج الرياح. وفوق هذا كله يعاني خلال حياته الكثير من الأذى والخوف والقلق. أليس أمراً محزناً يا صديقي أن تكون هذه هي نتيجة حياة الغني الجشع؟

عزيزي المستمع، لقد حذرنا المخلص المسيح من الطمع والسعي وراء جمع الثروة. فقال لتلاميذه: «انظروا وتحفظوا من الطمع. فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله. وضرب لهم مثلاً قائلاً: إنسان غني أخصبت كورته. ففكر في نفسه قائلاً: ماذا أعمل لأن ليس لي موضع أجمع فيه أثماري. وقال: أعمل هذا. أهدم مخازني وابني أعظم وأجمع هناك جميع غلاتي وخيراتي. وأقول لنفسي: يا نفس لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة. استريح وكنى واشربي وافرحي. فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك. فهذه التي أعددتها لمن تكون؟ هكذا الذي يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله» (بشارة لوقا ١٢: ١٥-٢١).

لقد ظنّ هذا الغني أن سعادته تكمن في ثروته الكبيرة. وأن الخيرات التي حصل عليها، ستجعله يعيش سنياً عديدة بدون أن يحتاج إلى شيء. لكنه لم يعلم أن ثروته لن تطيل من عمره، وأن حياته ليست في يده. وأوضح المخلص المسيح أن السبب كامن، لاعتماده الكلي على أمواله التي كنزها، وليس على الله.

وفي مناسبة أخرى قال المخلص المسيح لتلاميذه: « ما أعسر دخول المتكّلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله. فبهتوا للغاية قائلين بعضهم لبعض فمن يستطيع أن يخلص؟ فنظر إليهم يسوع وقال: عند الناس غير مستطاع. ولكن ليس عند الله. لأن كل شيء مستطاع عند الله» (بشارة مرقس ١٠: ٢٤ب-٢٧).

هل تعلم مستمعي أن سعيك لجمع الثروة سيقف حائلاً بينك وبين قبول خلاص الله؟ لأنك ستلقي كل اعتمادك على ثروتك، وكأنها هي الوسيلة نحو سعادتك. وفي هذه الحالة تجد نفسك مكبلاً بالقيود المادية، وغير قادر على طلب خلاص الله، والدخول بالتالي إلى ملكوت الله. لا تجعل صديقي أي أمر مهما كان أن يقف عقبة بينك وبين طلب خلاص الله. لما لا تأتي إلى الله تائباً عن ذنوبك، ومؤمناً بالمخلص المسيح الذي مات من أجلك على الصليب، وقام من بين الأموات غالباً؟ وهكذا تتال الغفران الكامل، والحياة الروحية الجديدة والخلود. فهل تراك تتوب وتؤمن؟